الفصل الثالث
الهند المشرقة

إن الموت جوعاً هو النتيجة الحتمية للعولمة ولسياساتها، فهي التي حولت الطعام من حاجة أساسية، لكل إنسان الحق فيها، إلى سلعة يتم الاتجار بها دولياً.

فاندانا شيفا

الغربان تصفق بأجنحتها على النافذة البارزة، وهي تنتظر لتحلق ثم تغوص. وأصوات نعيقها لا تنقطع، وعصائب الغربان المنذرة بالشؤم هي المختلفة في الهند. وهي ترقص في المطر الأسود ورياح المونسون تلف بومباي، وترفرف فوق البحر بما فيه من طُفاوة حطام السفن المتعفنة من الصرف الصحي وأحشاء السمك، وتحط الغربان على صورة ملصقة على لوحة إعلانات على جانب الطريق، لرجال أعمال شباب، من ذوي البشرة الفاتحة، وهم فرحون ويحتفلون بامتلاكهم هاتفاً جوالاً يظهر على شاشة تلفاز. ورجال الأعمال في الصورة والغربان السمينة يطلون على هرم من النفايات، يسكنه كلب شرس وجرذان مندفعة (وعيونها على الغربان) وتسكنه مخلوقة بشرية ضئيلة جداً، التصق عليها الساري الخاص بها من المطر وكأنه التصق بغراء، وهي تحفر حفراً منهجياً بيديها.

بومباي هي أغنى مدينة في الهند، وهي تعالج 40 بالمائة من تجارة البلد البحرية، وفيها معظم البنوك التجارية وسوقان للبورصة وكثافة سكانية ترتفع إلى مليون نسمة في الميل المربع الواحد. البهجة والصدمة استجابتان متزامنتان معاً. ارفع عينيك تر الصروح الغوطية الرائعة من زمن الحكم

البريطاني لا تكاد تبدو حقيقية إلا قليلاً: وبرج الساعة في راجاباي، الذي كان فيما مضى يدق احكمي يا بريطانيا! عند تمام الساعة، وملذات ملحمية، وأعظم محطة قطارات في العالم، يعبر منها مليون عامل في كل يوم، بفِيَلَتِها المرصعة بالزجاج والتي يطل عليها أسد بريطاني ونمر هندي نحتهما طلاب جون لوكوود كبلنغ، والد الشاعر الذي ولد هنا، ومتحف أمير ويلز (ومازال يسمى بهذا الاسم في الشوارع، مثله تماماً، مثل اسم بومباي الذي بقي رغم الاسم الجديد مومباي الذي أهمل تقريباً)، مع مجموعته التي تهمس بتاريخ ثقافي لا تعرفه إلا قلة من الغربيين، وقبته الكاملة التي تسيطر على موقع الهلال الذي يقود إلى بوابة الهند، التي كانت قد بنيت لترحب بالإمبراطور البريطاني ولتشرف على خروجه.

وفي حديقة فكتوريا، ينهمر المطر نازلاً كالملاءة على الأميرألبرت وهو على جواده، والناس يمشون وكأنهم في ساحة تدريب، في دورة بعد دورة، يمرون بالقرب من أيل الرنّة المدهش والنمور اللامبالية. وتقوم عربة بيع آيس كريم بتشغيل أغنية "الأشياء أفضل مع الكوك" باللغة الهندية. وبالقرب من المكان هناك ما يسمى مقاطعة "الطرق الحديدية"، التي نادراً ما يراها الأجانب، وهي تقول لاشيء قد تغير. والناس هنا قد هربوا من إيجارات أرضهم وهم في جوع شديد. فيما مضي، كانت المدينة تقدم العمل في مصانع نسيجها وفيما حولها، ولكنها استبدلت بهذه المصانع "متنزهات آي تي أس، حلول مشاريع تقانة المعلومات" (مراكز الاتصالات و"خدمات نشيطة" أخرى من تقانة المعلومات).

والظروف التي يعيش تحتها هؤلاء اللاجئون الأخيرون هي ظروف لا تكاد توصف: فالأسرة الممتدة المكونة من عشرين فرداً تعتصر وتحشر في علبة كصندوق حزم المتاع، ومياه الصرف الصحي في حالة مد وجزر وجريان في موسم رياح المونسون، ولكنها تمكث في الفصل الحار. والغربان السمينة تنتظر، كما سبق لها دائماً، أو تركب على المطرات، والكلاب الشبيهة بالهياكل العظمية

تمضغ اللاشيء. ومع ذلك، انظر لمحة داخل هذه البيوت المبتلاة الضئيلة كأنها من ليلليبوت*، تجد أن هناك نظافة وترتيباً كالدبوس الجديد، وتجد الملابس ملفوفة في البلاستيك والأطفال يرتدون الملابس الملونة بالألوان الزاهية. وإن رؤية مثل هذا الوقار لتنتاب النفس باستمرار على نحو مزعج وتبعث على التواضع معاً، وقار رجل فقير، كما كتب نيسيم إزيكيال** في قصيدته "جزيرة"، "ممتلكاً السكينة والصخب في خطوته المديدة"[1]

ولكن لماذا ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك؟ لقد قابلت رجلاً من البنغال كان يوفر طوال أسابيع لما يعادل ست جنيهات، كانت ستشتري له كرسياً بلا ظهر ولا ذراعين لامعاً كتلميعة الحذاء، وقد ناقش معي مأزقه الحرج، ولم يطلب مني شيئاً. هو، وهم، غرباء بالنسبة إلى الوجوه المشرقة الموجودة على لوحة الإعلانات، والسؤال هو نفسه دائماً: لماذا يكون على مثل هذا المجتمع الثري والمليء بالموارد والحكيم ثقافياً، مع وجود ديمقراطيته وذكرياته عن كفاح شعبي عظيم، أن يعيش مثل هذه المعيشة؟ حين كنت في آخر مرة في بومباي قبل جيل، سألت مخرج الأفلام العظيم في بوليوود راج كابور عن الأسباب التي تجعل الفقر مقاوماً إلى هذا الحد في الهند.

وأجابني: "إن الأجانب يسيئون الحكم علينا. فنحن مجتمع ذو حراك. ولكن معظمنا مجبرون على أن يعيشوا حياة مسبقة التقدير من مجموعات قوية تفرض هذه الحياة علينا لمصلحتها. والنقطة هنا، هي أنهم يحتاجون إلى الفقر، الذي يعتبر جيداً جداً من أجل إثرائهم، ومن أجل رفع الآمال السياسية، ومن أجل تمرير رزم الطعام، كما نقول، ومن أجل تعزيز تقسيمات الدين والمنبوذين. ومع هذا، فكل ذلك صرف للانتباه: تماماً مثلما هي أفلامي صوارف للانتباه. فحين يفهم الناس هذا فهماً كاملاً ويتصرفون، سوف تتغير الأشياء في الهند".

---

* إشارة إلى أرض الأقزام في رواية رحلات غليفر للكاتب الإنجليزي جوناثان سويفت (1667 – 1754).

** نيسيم ازيكيال (1924 – 2004) شاعر، وكاتب مسرحي وناقد فني هندي يهودي.

وقبل عامين من ذلك، في العام 1971، كنت قد طرحت السؤال نفسه على رئيسة الوزراء إنديرا غاندي. وكانت هي وحزب المؤتمر قد أعيد انتخابهما قبل مدة قليلة بأغلبية ساحقة. وكانت حملتها حملة وعود، وقد صوت الفقراء لها. وقالت: "أنا أدرك، بعد الاستقلال، أن اتجاهنا قد تغير في مكان ما على طول الطريق. لقد امتلكنا الخيار. كان علينا إما أن نشتري سلعاً أجنبية أو أن نساعد الصناعيين على أن يثروا. ولذلك فلدينا الآن طبقة وسطى ولدينا أناس فقراء يعرفون أنهم فقراء. تلك هي البداية لتغيرنا الكبير".

"التغيير الكبير" لم يحدث أبداً، باستثناء فرضها الكارثي لأحكام القانون العرفي الذي تبع اغتيالها. وبدلاً من ذلك، حدث التغيير في التسعينيات من 1990، حين مهد الإثراء المستمر "للصناعيين" تحت حكومات المؤتمر الطريق إلى ظهور سلالة من الرأسمالية الإمبراطورية، التي كانت قد صممت في إنكلترا في أواخر القرن الثامن عشر. في كتاب اكتشاف الهند، الذي كتبه جواهرلال نهرو في العام 1944، توقع وسبق نظره إلى هذه النسخة من الأزمنة الحديثة، نسخة "الفساد، وتقاضي الرشوة، ومحاباة الأقارب، والعنف والجشع نحو المال من هذه الأجيال الأولى من الحكم البريطاني في الهند [التي] تمرر الفهم". وأضاف، لقد كان ذا "مغزى أن إحدى الكلمات الهندوستانية التي صارت جزءاً من اللغة الإنجليزية هي (النهب)"[2]

وكان بذلك يشير إلى شركة الهند الشرقية، أو "شركة الهند الشرقية الشريفة" كما كانت تعرف في الأساطير الإمبراطورية التي عُلّمت لجيلنا. وكان يفترض فينا ألا نعرف أنها ستكون النموذج للمؤسسة المتعددة الجنسيات والنموذج "للاقتصاد العولمي". واليوم، يجري منحها قابلية الاحترام التنقيحية التعديلية نتيجة نظرة من قبل التواريخ والمعارض العامة في المكتبة البريطانية وفي متحف فكتوريا وألبرت. ومع ذلك، فمثل الهند الحديثة نفسها، كما يلاحظ المؤرخ نيك روبينز، هذا الذراع الأشد جشعاً من الإمبراطورية ورائدة نظرية الاستهلاكية الحديثة، يمتلك دروساً أعمق وأشد إزعاجاً ليعلمنا إياها، سوء استخدام قوة السوق، وجشع

الشركات الكبرى، وحصانة القضاء وإفلاته من العقاب، "والحماسة اللاعقلانية" للأسواق المالية، وتدمير الاقتصادات التقليدية... وما من واحد من هذه الأمور جديد. وأكثر الشكاوي شيوعاً ضد رأسمالية أواخر القرن العشرين ومطالع القرن الحادي والعشرين كانت قد بدت علاقتها كلها سلفاً في قصة شركة الهند الشرقية منذ قرنين[3].

وكان المدير التنفيذي الرئيسي لشركة الهند الشرقية هو روبرت كلايف. "كلايف الهند" سلب، حرفياً، خزينة البنغال من كل ذهبها وفضتها وحملها على متن أسطول من أكثر من مائة قارب. وكان "ربح" الشركة 2.5 مليون جنيه إسترليني (أكثر من 200 مليون جنيه اليوم)، والتي خصم منها كلايف 234.000 جنيه إسترليني (20 مليون جنيه إسترليني). لقد ولد "متعدد الجنسيات"، وتم تصوره من سلالة من الناس معروفة باسم المضاربين، وهم الذين رفعوا في العام 1784 أسعار الطعام إلى مستوى يتجاوز القدرة التي يصل إليها فقراء الهند. وقد كتب روبنز يقول: "تختلف التقديرات، ولكنّ ما يصل إلى عشرة ملايين نسمة قد ماتوا من الجوع"[4] ففي البلاد التي كانت في القرن السابع عشر هي "الأم الزراعية لآسيا والمشغل الصناعي للعالم،" والتي كان فيها نساجو القطن قد تمتعوا بمستوى معيشة أعلى من نظرائهم في إنجلترا، في هذه البلاد صارت الحياة تحت الحكم البريطاني سلعة أقل قيمة[5].

في 12 كانون الأول/ديسمبر من العام 1876، حددت التايمز تقريرها عن الإعصار الذي قتل ما يقدر بربع مليون بنغالي بالتالي: "لا يحتمل أن تؤدي الكارثة إلى توليد الكثير من الأسى المادي بين الناس. ومراكز الإغاثة الحكومية قد فتحت والكن] لن تصرف مبالغ مالية ضخمة وسوف تتوجه العناية إلى ترك كل شيء إلى أبعد حد ممكن للتجارة الخاصة". وقد كتب نهرو بنظرة ثاقبة تنبئية، عن تراث الإمبراطورية، يقول: "ونحن واقعون في قبضة تشابيكه، ناضلنا بهذا الشكل عبثاً لنخلص أنفسنا من هذا الإرث الماضي ونبدأ من جديد على أساس مختلف"[6] واليوم، يمتلك التراث حياة جديدة في الطقوس الإمبراطورية الحديثة من "الليبرالية الجديدة".

ومع صعود الحكومة الهندية القومية التي قادها حزب بهاراتا جاناتا في التسعينيات من 1990، جُردت الهند من أبوة نهرو، ونال المجتمع المقسوم الذي وصفته ابنته الترخيص من صندوق النقد الدولي. وجرى تدمير الحواجز التي أقامها حزب المؤتمر لحماية الصناعة الهندية وتصنيع السلع. ودخلت الكوك، وبتزا هت، والمايكروسوفت، وروبرت مردوخ ما كانت أرضاً ممنوعة. وقامت شركة إعلانات أمريكية هي غراي غلوبال غروب، باختراع شعار "الهند المشرقة" (أو "إشراقة الهند")، للطبقة نفسها من المخادعين الذين يحتفلون الآن بكلايف الهند والنهابين السلابين الذين كانوا معه: الهند المشرقة سوف تلحق بالصين بصفتها قوة اقتصادية، والطبقات الهندية الوسطى سوف تثري وسوف يستأصل الفقر من جذوره.

وفي الواقع، كانت "الحقيقة" الرسمية في دلهي عند نهاية القرن العشرين هي أن عدد الهنود الذين يعيشون في فقر كامل قد هبط بنسبة تصل إلى 10 بالمائة. وفي الدراسة المهمة التي شكلت معلماً لما بعدها وكانت بعنوان الفقر وعدم المساواة في الهند: الاقتراب من الحقيقة اقتراباً أكبر، يكشف أبهيجيت سن أن الفقراء الهنود قد ازدادوا بالفعل، وأن عقد التسعينيات من 1990 كان بالنسبة إلى الفقراء "عقداً ضائعاً". وفي العام 2002، شكل أولئك الذين يعيشون في فقر كامل أكثر من ثلث السكان، أو 364 مليون نسمة. وقد كتب يقول: "إن التغذية غير الكافية هي بالفعل أكثر انتشاراً من الجوع أو من فقر الدخل كليهما إلى حد بعيد. ونصف الأطفال الهنود هم سريرياً مصابون بنقص التغذية وأربعون بالمائة تقريباً من الكبار يعانون من نقص الطاقة المزمن"[7] الهند وطن لعدد من الناس الذين يعيشون في الفقر أكثر من أي بلد آخر في العالم[8]. وقد كتب الصحافي الهندي بالاغومي سيناث يقول "من الأفضل أن تكون شخصاً فقيراً في بوتسوانا أو في الأراضي المحتلة في فلسطين من أن تكون فقيراً في الهند"[9]

وبالنسبة إلى الفقراء، الذين حرموا من "شبكات الأمن" القليلة التي كانت موجودة في العهد الماضي، كانت الحياة أقسى. وبالنسبة إلى معظم البقية، فإن

القليل هو الذي تغير. ففي أحدث مدينة في الهند، لا يملك 40 بالمائة من السكان الوصول إلى مياه الشرب المأمونة. وقد كتب سوكيتو ميهتا في المدينة القصوى: بومباي فُقدت ووجدت، وقال: "الطعام والماء في بومباي، ملوثان بالغائط. والزُّحار المتموّري (دوسنطاريا آميبية) ينتقل من طريق الغائط. لقد كنا نغذي ابننا بالغائط. قد تكون وجدت في المانغا التي أعطيناها له، وقد تكون وجدت في بركة السباحة التي اصطحبناه ليسبح فيها. وقد تكون جاءت من صنابير المياه في بيتنا الخاص، نظراً إلى أن أنابيب مصارف الماء في بومباي، والتي مددت في أثناء الأزمنة البريطانية، ترشح إلى أنابيب المياه النظيفة التي تسير إلى جانبها وعلى طولها تماماً. وليس هناك دفاع ممكن. وكل شيء يعاد تدويره في هذا البلد القذر، الذي يسمم أطفاله، وينشئهم على غذاء عام من غائطنا الخاص... في البلدان الأخرى، هناك مملكة من المرضى ومملكة من الأصحاء. أما هنا فالمملكتان مملكة واحدة[10].

بالتأكيد، فإن معدل نمو الهند قفز إلى ما فوق 6 بالمائة، ولكن هذا عن رأس المال، لا عن العمل، وعن الأرباح المعفاة المحررة، لا عن الناس. والدعاية المفرطة عن الهند عالية التقانة التي تقتحم فجأة حواجز العالم الأول بشكل كاسح هي دعاية تستند إلى حد كبير إلى أسطورة. وليس معنى هذا التقليل من صعود الهند إلى موقع بارز في تقانة الحاسوب، مع جيلها العارف بالحاسوب في دلهي وبومباي وبانغالور، وهيئة العلماء المتميزين (مثل مخترع الهوتميل)، ولكن هذه الطبقة من الفنيين (التكنوقراطين) طبقة قليلة، وهي، إذا نظرنا إليها من قمم صراع الهند من أجل الحرية، تغدو طرفة محزنة تقريباً تستثير الفضول.

إن مراكز الاتصالات المشهورة (المعروفة في الهند بلقبها الأورويلي* الذي تنبز به، وهو موفرو المصادر من الخارج لبرمجة الأعمال التجارية)، وفيها يتظاهر المتعلمون الهنود بالمعرفة "بطرز الحياة" البريطانية والأمريكية ويتحدثون بلكنات أمريكية ويسمون أنفسهم "جيري" و"سونيا" ليخدموا أمثال الأمريكان أكسبريس،

*نسبة إلى الكاتب البريطاني جورج أورويل(1903 – 1950) وخصوصاً روايته 1984 التي تصور الدولة المستقبلية الشمولية، وله أيضاً رواية مزرعة الحيوان.(المترجم)

هي مراكز توظف حوالي 245.000 نسمة فقط. وبالنسبة إلى أولئك الذين يصلون إلى مستويات أعلى من هذه المراكز، فإن بانتظارهم أقسى طبقة تقوم على الجدارة في العالم. فمن بين مائتي ألف متقدم لمواقع في شبكة الجامعات النُّخبيّة التي تشكل معهد التقانة، ينجح أربعون فقط[11].

منذ العام 1993، ضم ما يسمى بالازدهار الاستهلاكي في الهند، على الأكثر، 15 بالمائة من السكان، الذين عنت لهم الرفاهية الجديدة امتلاك مرافق المعيشة الحديثة الأساسية، وليس السيارات والهواتف النقالة. وبالنسبة إلى أكثرية الهنود، فإن "السوق العولمي" له معنى مألوف لأكثرية الإنسانية. ومثلما ارتفعت الصور على لوحة الإعلانات لنماذج الناس الذين يلعبون الدور المحدد لهم وهم يظهرون بجلدهم الأبيض وبأسنانهم الجيدة، كذلك كانت الخدمات العامة الهشة قد تدهورت من قبل ذلك. ووفقاً لأرقام الأمم المتحدة، تصرف الهند أقل من 1 بالمائة من الإنتاج المحلي الإجمالي على الصحة، وتأتي الهند في ترتيبها في الخدمات الصحية المتوافرة لمعظم الناس في المرتبة 171 من 175 بلداً، أي قبل السودان وبورما مباشرة. ومع ذلك فإن الصرف على الصحة الشخصية، وهو الأمر الذي لا يقوى عليه إلا الموسرون، هو من بين أعلى أنواع الصرف في العالم[12].

وتعكس الصحف الهندية هذه الهوة بطرق لافتة للنظر. وتقدم الإ نديان إكسبرس تحقيقاً مؤلماً جداً عن الأحوال المروعة للمستشفيات، ثم تنفخ في بوق إدراج الهند في قائمة "أفضل بلدان العالم" وهي قائمة سطحية لا عناء في الوصول إليها ألفتها المجلة الأمريكية نيوزويك، بالاستناد استناداً كاملاً إلى "الإصلاحات الليبرالية الجديدة" التي قام بها البلد[13]. وتروي جريدة التايمز أوف إنديا في تقاريرها أن ماهاراشترا مدير الصحة غائب في "منصب مرغوب" أعطي له مكافأة في منظمة الصحة العالمية. وسيكون غائباً لمدة أربعة أشهر، ويدير مسحاً صحياً في جنوب شرق آسيا. وفي أثناء المدة 2003–4، من عمله مات حوالي تسعة آلاف من أطفال القبائل – وهم أفقر الناس للغاية – وكان ذلك نتيجة لسوء التغذية ونقص الرعاية الطبية. ووجه القائم بأعمال رئيس المحكمة العليا بالنيابة في الدولة النقد له على

"إهماله" لواجبه. ورد المدير بالقول: "إن الوفيات شائعة، وأنا فعلت ما يكفي في السنوات العشر الماضية"[14]

هناك الكثير حول هذه القصة يشرح لِمَ قام الهنود بأغلبيتهم بصدم رؤسائهم بواسطة التصويت لتجاهل حزب بهاراتيا جاناتا وإخراج الحكومة التي قادها الحزب في انتخابات العام 2004. فمع حملة هذه الحكومة التي كلفت 100 مليون دولار عن "الهند المشرقة"، فإنها أشبعت وسائل الإعلام برسائل وصور للحياة الاستهلالية: الشباب بأسنانهم الجيدة وصارت أذكى الهواتف الجوالة رموزاً "لعامل أشعر شعوراً طيباً"، وهي صفة أخرى من الفكرة الأمريكانية. والسخف غير المعقول في هذا الحال صار واضحاً حين حاول الناس أن يترجموها إلى لغتهم الهندية المحلية. فكلمة طيب أي "غود" (Good) صارت غور (Gur) أي، قصب السكر باللغة الهندية، وصار الفلاحون يسألون: ما هذا السكر الذي يصنع من (شعور)؟"[15]

لقد صوتت أغلبية من الهنود ضد هذه النسخة من المؤسسة العولمية، التي خلطها حزب بهارتيا جاناتا بإيديولوجيته الهندية الجماعية وإيديولوجية الخوف من الأجانب الهندوسية. وقد دُفع القرويون الفلاحون إلى التفكير في الانتحار بسبب الارتفاع الحلزوني في أسعار حبوب الطعام، التي شح توافرها وهبط إلى مستوى أدنى من المستوى الذي سبق أن سُجل في المجاعة البنغالية الكبيرة في الأربعينيات من 1940، فالنساء اللواتي يحملن الماء لمسافات طويلة واللواتي مات أطفالهن من دون أي اعتراف بهن من الدولة، والشباب الذين لا يملكون الأمل في الحصول على عمل، دع عنك امتلاك الهاتف الجوال الذي يلتقط الصور، كلهم صوتوا لحركة سواديشي: العدالة الاقتصادية التي تؤكد الحاجات الأساسية والحق بالكرامة الإنسانية. وعلى الرغم من أن أصواتهم كانت موجهة إلى نظام حكم أصولي أدت "إصلاحاته" التي قام بها إلى زيادة فقرهم، فإن تلك الأصوات كانت صيحة غاضبة أيضاً ضد نخبة جعلت منهم غير مرئيين تقريباً منذ الاستقلال.

ومثل أنديرا غاندي، قادت زوجة ابنها سونيا غاندي حزب المؤتمر إلى نصره الذي لم يكن متوقعاً بالتحدث ضد الفقر، برغم أنها نادراً ما تحدثت ضد النخبوية التي ضبطت

الفقر ورسخته. وحين تتحَّتْ جانباً بصفتها رئيسة الوزراء الجديدة، فإن الرجل الذي حل محلها، وهو مانموهان سنغ، قالها صريحة واضحة: لن يكون هناك "تراجع" عن "السوق الجديد". وقد فرحت نيوزويك، وقالت إن الهند "متجهة في ما تعتقده الأموال الذكية أنه هو الاتجاه الصحيح". وعرضت المجلة لمحة عن هذا "الاتجاه الصحيح" بأن خصصت صفحتين لهجوم على صناعة الصيدلانيات في الهند لأنها أنتجت عقاقير تنقذ الحياة إنتاجاً رخيصاً. وامتدح "الكشف" قرار الحكومة الجديدة أن تطيع منظمة التجارة العالمية و"تضع نهاية للعقاقير العامة السريعة والرخيصة". من أجل الفقراء[16].

وكان هذا يعني اندفاعاً كالاندفاع الذي جرى نحو الذهب من الشركات الأجنبية لتقوم بعمل تجارب سريرية على الهنود الفقراء. وإذا أخذ ارتفاع تكلفة البحث في الغرب، فإن الهند قد صارت فجأة موقعاً مدراً للربح. إن عرض 100 دولار على شخص فقير، وهذا المبلغ ثروة صغيرة، من أجل استعمال عقار طبي غير مجرب يجعل من روح الموافقة المطّلعة مهزأة غير مناسبة. لقد قال سريروبا براساد، وهو أستاذ التاريخ الطبي والأخلاقيات الحياتية: "إن الحياة في العالم الثالث تساوي أقل من الحياة الأوروبية، ذلك هو كل ما كان يدور حوله الاستعمار"[17]

في حملة حزب المؤتمر للانتخابات، استخدم الحزب شعار "علامَ يحصل الرجل العام؟" وهو سؤال قد يسأله حزب الحرية لنفسه. فعلى سبيل المثال، ومنذ بداية العام 2005، فإن حكومة ولاية ماهاراشترا التي كان يسيطر عليها حزب المؤتمر دمرت تسعين ألف بيت من أفقر بيوت بومباي، وبذلك أضافت ثلاثمائة وخمسين ألف نسمة إلى سكان الشوارع. وقد أعلنت سلطة المدينة عن عزمها على جعل بومباي "شنغهاي التالية" بحلول العام 2010. وهذا ما هو معروف باسم "رؤية مومباي" وهو من اختراع الاستشاريين الأمريكيين ماككينزي.

والناس الذين تركوا بلا بيوت عاشوا في أمبيوجورادي وبهيمكايا، على حافة حزام شجري من التين الهندي. وقد نقلوا إلى هناك في العام 1992 من منطقة مكتظة فقيرة أخرى كانت قد دمرت في مخطط سابق. إنهم الناس الذين بنيت على ظهورهم بومباي الحديثة. وكانت الطبقة الوسطى قد اعتمدت عليهم بصفتهم

بنائين رخيصين، ومنظفين رخيصين، ومربيات أطفال رخيصات، ومراسلين رخيصين. وقال الوزير الرئيسي في الولاية، فيلاسروا ديسهميوك: "ليس هناك بديل"، وهو غير مدرك على ما يظهر للصدى السيئ السمعة الذي يتردد في كلماته. "سيكون العديد من الناس منزعجين وسوف يترتب عليهم أن يقدموا تضحيات"[18]

أول مرة وقع فيها بصري على الهند كان في صيف 1966، جهنم. فقد كانت رياح المونسون قد أخفقت تماماً، وأحالت الحرارة الصفراء الأرض الزراعية غير المنتجة إلى غبار. وجثمت الغربان على جدار مستشفى البعثة في ناصرآباد، وهي قرية في ولاية راجستان، وكانت رسمياً في "حالة حاجة كبيرة": وهو تعبير ملطف عن جفاف مفرط للغاية يشير إلى المجاعة. ولم أستطع النوم من الحرارة، فاستمعت إلى ضجيج الناس، صرخات ضعيفة وبعيدة، هي نواح تفجعات أكثر منها صرخات تطلب المساعدة. من كان أولئك؟ امرأة تواجه فقد ابنها الوليد الأول؟ وأخرى تسحب ساريها على صدرها الفارغ، في الوقت الذي تشبث فيه وليدها بصدرها تشبثاً أعمى؟ ورجل قدري يقضي بأن تعاسات شعبه يجب أن يكفر عنها بموته الشخصي؟ أو هو ببساطة شخص ما كان جائعاً وكان يحتضر؟

لم يكن هناك ماء، باستثناء ما ترك منه موحلاً وملوثاً في قعر الآبار القليلة المتبقية، والماء المجلوب على ظهور الجمال والشاحنات. وجاء الناس إلى ناصرآباد مثل مجيء البدو الرحل إلى واحة، وفي الليل يضطجعون خارج المستشفى: رؤوس جلدية في عمائم حمراء نارية، ومخلوقات صغيرة بنية بظهور منحنية وبأطراف بعرض الضفائر التي تتدلى نازلة على ظهورهم، وأيديهم ممزقة من رفع الحبل من أجل نصف دلو من السائل المالح. ما من أحد منهم استجدى. متوسّلون بسبب الحاجة الماسة اليائسة، لقد كان لبؤسهم شرف حين قبل كل واحد منهم أربع أونصات من القمح، وهو ما قيل إنه كان كافياً للاستمرار في البقاء.

على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب كانت هناك عدة قرى لم تكن قد هجرت. وفي أثناء الليل سقط وابل خفيف من المطر وكان الناس مستيقظين منذ الساعة الرابعة يغترفون برك ماء المطر إلى أوعية حمل الماء الفخارية، وهي الأواني الفخارية

الأساسية التي لا غنى عنها المعروفة باسم الماتكا. وقد أعطي معظم الماء إلى عنزتين قيمتين في حين استعدت العائلات للمشي ثلاثة أميال إلى قرية أخرى كانت تمتلك بئراً مازالت تعمل، وهم يقومون بهذه الرحلة في درجات حرارة تصل إلى 42 درجة مئوية ثلاث مرات في اليوم. وجميع الرجال يعانون من وجود حدبة على كتفهم الأيسر تكشف أسرار شقائهم: وهي ورم قرمزي سيئ يسببه حمل الأواني الفخارية (الماتكات) طول العمر. وسألت واحداً منهم: "هل تؤلم؟" فأجاب: "الرأس يؤلم، والأقدام تؤلم، أما هذه فلا، إنها ميتة". الأولاد يعانون من بداية الحدبة. وقالوا لي: في الأوقات الجيدة، حين ينزل المطر، فإنهم يعيشون على خبز من نوع يسمى روتي والمعجنات الحارة والماء، ومن دون الماء، كان الأولاد الصغار قد بدؤوا يموتون. وسألت صبياً في الثانية عشرة من عمره: "ماذا تريد أن تكون حين تكبر؟" فأجاب، وهو يشد جسمه المنحي إلى وضع الانتباه العسكري ويؤدي التحية: "جندي للهند".

إن أكثر من 70 بالمائة من الهنود يعيشون في قرى ويعتمدون على الزراعة. والظروف التي وجدتها قبل أربعين عاماً لم تتغير. وليس سوء التغذية وحده فقط الذي ينتشر في صفوف الأقليات، وهم 70 مليوناً من السكان القبليين و150 مليون نسمة من الداليتيين (المنبوذون)، بل إن "العقد المفقود" كان قد خرب حياة المزارعين الصغار من جميع الجماعات العرقية. وتحمل الصحف يومياً تقريباً قصة انتحار قرية. وقد روت إنديان إكسبريس، أن خمسة وخمسين مزارعاً، في منطقة غونتور من أندرا براديش، قد أنهوا حياتهم في مدة شهرين[19]. وقد قالت لي فاندانا شيفا المهتمة بالبيئة إن "الانتحارات هي فضيحتنا الخبيئة. وهي وبائية، تسري إلى العديد من الآلاف. ولا تجرؤ الحكومات على الإقرار بالرقم الصحيح"[20] فالديون، وهي مملوكة في الغالب لمقرضي المال بمعدلات فائدة ترتفع إلى 120 بالمائة، تزداد سوءاً وتتفاقم "بالسوق الحرة" الليبرالية الجديدة وهي تمنح رخص البذور والمخصبات الطبيعية على أيدي الشركات الحيوية العلمية الأجنبية وهي: "القرصنة لمصدر حياتنا". كما تسميه شيفا.

وتكتب قائلة: "في كل أرجاء الهند يجري دفع الفلاحين إلى أحضان الديون، والفقر المدقع والانتحار بعد أن يكون تم امتصاصهم إلى الأسواق

العولمية من أجل البذور والكيماويات العالية التكلفة. وهذه الأسواق العولمية تزيد تكاليف الإنتاج بنسبة 100 بالمائة، في حين تعمل المنتجات المستوردة المعانة إعانة عالية، والرخيصة رخصاً مصطنعاً على تحطيم أسعار المنتجات المحلية في سوق منحرفة". وإن "تحرير" البذور الذي فرضه البنك الدولي قد أجبر الفلاحين على شراء البذور المهجنة الغالية الثمن والكيماويات الغالية الثمن التي لا يستطيعون تحمل أسعارها. وتكتب شيفا: "تنويعات البذور الملقحة التي يمكن أن تحفظ ويعاد زرعها، قد بدلت وحلت محلها البذور المهجنة التي يجب أن يتم شراؤها في كل عام من الشركات [الأجنبية]".

وهي تستشهد بمنطقتي زراعة قطن تصل فيهما مستويات الانتحار إلى أعلى معدلاتها: بهاتندا في بنجاب ووارانغال في آندرا براديش. وفي كلتا المنطقتين دفع "فتح السوق" من أجل البذور الفلاحين إلى الحد النهائي.

لم يتخذ كل الفلاحين المدينين الخطوة القصوى من الانتحار. فالفلاح بوبي فينتاكا ريدي، على سبيل المثال، سقط أعمق فأعمق في الديون حين دمرت البذور المزيفة والكيماويات محاصيله عاماً بعد عام. وبعد أن تعرض للمضايقات المستمرة من المقرضين، سمع ذلك الفلاح عن سمسار كان يساعد الفلاحين على كسب المال عن طريق بيع كِلاهم... لقد كان هذا خياراً أفضل من الانتحار، ولذلك اتخذه.

وتركته العملية ضعيفاً وغير قادر على العمل. وفي الوقت الذي ترفض فيه الحكومة أن تقر بذلك، فإن الآلاف من المزارعين الهنود "المعولمين" يبيعون كلاهم لكي يبقوا على قيد الحياة فقط[21].

ولكن الشعب ليس ساكناً، والبدائل موجودة. فمنذ القرن التاسع عشر، أظهرت الحركات الشعبية في الهند أن لا ضرورة أن يكون الفقراء الهنود ضعفاء، وهم يجسدون صرخة شيللي للحشد: "أنتم الكثرة/ وهم القلة". لقد كانت الجماهير غير المسلحة هي التي أجبرت البريطانيين على الخروج، وتبقى منظماتهم هي المحك للحياة السياسية التقدمية، ابتداء من منظمة النساء للتوظيف الذاتي التي

تبلغ قوتها مليون عضو كلهن نساء، إلى الاشتراكيين الذين يديرون بنغال الغربية. في العام 1978، انتخبت الحكومة الشعبية الشيوعية، فأدخلت وأدارت عملية بارغا، التي تقتفي أثر كل واحد من فلاحي الدولة البالغ عددهم 2.3 مليون وهم الذين يستغلون الأرض بالمزارعه* وتسجلهم. ويجري الوصول إلى كل فلاح مستأجِر وتشرح له حقوقه، وتضمن المنظمة السياسية للحكومة في قريته أنه يستطيع أن يحصل على قروض طويلة الأمد ولا يروعه مقرضو الأموال. وقد اعتبرت العملية بارغا في كل أنحاء الهند عملية ناجحة، وخصوصاً بعد أن حلق إنتاج الرز عالياً في الولاية[22].

والنقيض لهذا موجود على أطراف المدن، وهو نقيض ينذر بتحذير كارثي لما يحدث حين يطرد الناس من أراضيهم. إن الريف الهندي ليس مفرطاً في الاكتظاظ بالسكان، وكثافة السكان فيه أقل من كثافتهم في البلاد الواطئة. ولكن مدن الهند، مثل بومباي وكالكوتا، تبدو على وشك الانفجار.

حين كانت طائرتي تقترب من كالكوتا، كان تقدم الأحداث واضحاً في أثناء الأشهر الخمسة التي مضت منذ كنت آخر مرة في البنغال. كان الشهر هو تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1971. وفيما وراء امتداد المباني غير المكتملة بشكل دائم لمدارج مطار دوم دوم كانت تقع مدينة من اللاجئين سبق أن نمت حتى صارت تقريباً بحجم كالكوتا نفسها. ثلاثة ملايين آخرون جاؤوا من البنغال الشرقية (التي كانت باكستان الشرقية آنئذ)، وهو ما يعادل مدينة مثل بيرمنغهام بنيت فعلياً بين عشية وضحاها. لقد عاش الناس في أنابيب الماء الكبيرة التي كانت تنتظر التركيب، أو في خيام، أو في أكواخ أو تحت ألواح الحديد الموج، والخيش والقش. وكان قد تم احتواء وباء الهيضة (الكوليرا) الذي سبق له أن انتشر بين أوائل الواصلين، وكان الأطفال الآن يموتون من الأمراض الشائعة مثل جديري الماء. كان ذلك في عشية الحرب التي وقعت بين الهند وباكستان وأدت إلى إنشاء بنغلاديش.

* المزارعة: استئجار الأرض نظير جزء من غلتها يدفع بدل الأجرة النقدية. (المترجم)

كانت السخرية قريبة في متناول اليد. فكالكوتا، التي تعيش في الليل في ضباب بني كامل لا يخفف منه شيء والمتشكل نتيجة للدخان المنبعث من آلاف حرائق الأحراج الصغيرة والمختلط في الرطوبة مع القذر الصناعي الذي لا يوقفه شيء، كالكوتا هذه أُمرت أن "تخفف" أو تعتّم الطاقة الكهربائية في حالة وجود هجوم جوي من القوات الجوية الباكستانية. وقامت وحدات الدفاع المدني بخوذاتها المشبهة لصحن الحساء العميق ذي الحافة الواسعة وبملابسهم التقليدية كالتنورة تجوب الشوارع وتعلن تجربة إنذار لغارة جوية، وقالوا للناس: "يجب على كل شخص أن يمكث في البيت وأن يبقى ساكناً في وضع الوجه إلى الأرض إلى أن تتوقف صفارة الإنذار عن العمل". والحقيقة التي لم تخطر على ما يبدو للسلطات ذات العلاقة هي أن ثلث السكان لم يكن لديهم بيوت ليمكثوا فيها، دع عنك أسقفاً ليمكثوا تحتها أو جدراناً ليمكثوا بينها.

وانطلقت نحو شارع فلاور في تالتوللا، وهي أفقر المناطق، وأشدها اكتظاظاً. وشارع فلاور هو العالم الصغير الممثل لكالكوتا. فمعظم الناس هناك عاشوا تحت السماء ومن دون عمل، أو صحة عامة، أو تعليم أو تغذية كافية. وأنابيب الماء، التي كانت شركة السادة جيسوب وشركاه قد مددتها تحت شارع فلاور قبل قرن من الزمان، كانت قد تجاوزت منذ وقت طويل عمرها الافتراضي المتوقع وانفجرت وأحيطت بمياه الصرف الصحي. وقد كُتب على مضخة الماء الوحيدة في الشارع، "لا تبذر، لا تحتاج– 1914".

كان صديقي دودلي غاردنر يعمل في شارع فلاور. وهو رجل من النوع الصخاب الصلب البنية كالدبابة، وكان دودلي رئيس رقباء سابق في فوج البنادق الملكي (فوج مدينة لندن) وكان قد جاء إلى كالكوتا بعد أن شارك في غزو السويس في العام 1956، وهي الحرب التي رأى فيها هجوماً من بلاد غنية على بلاد فقيرة وأحزنته حزناً جعله ينطلق ليقوم بأعمال التكفير الخاصة به للتعويض عن الإساءة. ويقوم في كل يوم، في سيارته اللاندروفر المعطوبة، بجلب الإمدادات الأساسية إلى شارع فلاور. وهو من عادته أن يقول بطريقته الخشنة: "سمها صدقة سياسية، إن أحببت".

ولدودلي رأي غير مألوف بكالكوتا. فقد رأى فيها تعبيراً حيوياً عن الإنسانية ورآى في مواطنيها أبطالاً ثابتين لا يتغيرون، وكان يجادل في أن مجرد البقاء في مثل هذا المكان هو في حد ذاته عمل بطولي. ولم يسبق له أبداً أن رأى نفسه هو في الضوء نفسه. وذكراه ماثلة في ذهني وهو يقف عند صبي معوق اسمه بابول ران، وكان دودلي يطعم هذا الصبي في الشارع الذي تمدد فيه وعاش فيه، ومظلته في وضع الاستعداد ليدفع عن نفسه أذى الكلاب الهجينة الضالة وهجوم الغربان من السماء. وقال لي: "لقد ولد هذا الصبي في يوم ميلادي، وأنا أقوم منذ ذلك الوقت بإطعام هذا المتشرد الصغير، والأمر المزعج للغاية هو أنه سيذهب، حين سأذهب أنا".

كان دودلي يعاني من مرض في الدم سبّب له ورماً قبيحاً في ساقيه وهو يعاني من هذا المرض في الجو الحار. وحين ذهبت إلى بيته، وكان غرفة عارية إلا من سرير، وكرسي وبضع صور له من أيام خدمته في الجيش، كان الباب مغلقاً بالترباس. جاء شخص ما على الدرج وقال إنه مرض ونقل بعيداً، ولكنه لا يعرف إلى أين. تركت ملاحظة تحت بابه ومشيت إلى ركن فلاور ستريت، إلى المكان الذي عاش فيه بابول ران، المتشرد الصغير، ولكنه هو نفسه لم يكن هناك كذلك.

وأنا سوف أقدر دائماً إحساس دودلي بالتاريخ. فقد قال إن بطولة الناس "قد انتقلت" منذ أن بدأ كلايف الهند (كلايف أوف إنديا) بتجريد البنغال الذهبي من "ثرواته التي لا تنضب، ومنذ أن أسس سادة التجارة الفكتوريين على ضفاف قناة هوغلي مانشستراً آسيوية، أغري فيها الناس الذين كانوا في السابق يملكون ما يكفي ليأكلوا إغراء جعلهم يخرجون من أرضهم ليكون بالإمكان صنع الثروات على أكتاف شغلهم في المصانع.

ورثة كلايف الهند يمكن أن يُلمحوا بعد أقل من نصف ساعة من قيادة السيارة من المكان. ونادى توليغونج، الذي كان يعتبر أقل بقليل، ولكن بشكل له دلالة، من نادي كالكوتا إلى أن تحول هذا الأخير بعد الاستقلال، "تحولاً

وطنياً"، نادي توليغونج هذا كان مشغولا بالاستعدادات لمنافسات السيدات في السباحة على ألعاب كأس الوردة (روز بول) وبالخبراء الذين يجيبون عن أسئلة الجمهور في غرفة الكتابة وبالرقص على ضفاف بركة السباحة وبلعبة البنغو. والأحوال السائدة لم تخفف من خصوصية النادي، الذي شملت عضويته الآن سياسيي المؤتمر المحليين الذين يطمحون إلى أن يكونوا هم نظام الحكم البريطاني الهندي الجديد. لقد قذف رجال حرب العصابات الماوية قنبلة على خيل المسابقة، وهو أمر كان سيئاً للغاية، ثم تبين أن أحد الذين ألقوا القنبلة كان "ذلك الرجل الصغير الطيب" الذي كان يمسك بالمظلة عالياً للأعضاء على المرجة الخضراء، وطبيعي، أنه كان على جميع "صِبْيَة المظلة" أن يذهبوا.

ومن حين إلى آخر، يظهر عادة عميد في الجيش الهندي على شرفة النادي أو في ردهة الفندق الكبير، غراند هوتيل، التي كانت تقابل الميدان، ومنه كان من الممكن أن تتبين الهيئة اللؤلئية للإمبراطورة فكتوريا وهي تظهر من خلال الضباب القذر. وقد وجدت أنا أن هؤلاء الضباط السابقين – الضباط الهنود الذين عينهم الملك – مهجنون دخلاء. فقد كانوا يختالون في مشيتهم ويتحدثون مثلما علمتهم الكلية الحربية في ساندهيرست ومثلما علمتهم فروعها الهندية، وكانوا يقودون أمماً ذات صحة داخل الأمة: معسكرات ضخمة لا وجود فيها للجوع والمرض. وتملك الهند أكثر من مليون رجل تحت السلاح في ثلاثة ألوية، وثلاثين فرقة، وخمسة وثلاثين سرب طائرات، وست وأربعين سفينة حربية، وتستهلك نصف الميزانية الوطنية تقريباً. ومنذ الاستقلال صار تسليح الهند اعتقاداً راسخاً لاشك فيه بالنسبة إلى نظام الحكم البريطاني السابق للهند. لقد قضت حكومة طوني بلير ست سنوات تقريباً وهي تقنع السياسيين الهنود بشراء ست وستين طائرة مقاتلة من نوع هوك النفاثة، التي تساوي البلايين، في بلد هو كما كتب عنه أبهيجيت يقول: "نصف أطفال الهند يعانون من نقص التغذية".

حين تمشي على طول شاطئ تشوباتي، فإنك لا تكاد تلحظ الأشكال المتقوسة المحتشدة تحت نبات القصب والخيش. وقيمة الممتلكات المرتفعة فوقهم

تساوي أكثر مما تساويه في لندن أو باريس. ويسميها المضاربون "الذهب البني". فهذا هو المكان الذي يعيش فيه الأغنياء وتعيش فيه الأنساق العليا من الطبقة المتوسطة الجديدة. في بعض الأيام، كانوا يبدون وهماً صار حقيقة بالإعلان الموجه إليهم فقط وبصحافة ترسل أكثر من أربعمائة مراسل لتغطية عرض أزياء، ومع ذلك فجميعهم تقريباً يتجاهلون الأزمة الزراعية التي تؤثر على 70 بالمائة من الشعب. وفي حفلات العشاء، يتحدث الناس بشوق إلى الحكم الفردي في سنغافورة، وماليزيا، والصين. وهم يعتقدون أن الديمقراطية "تسبب الفرقة والهدر في الهند"[23]

إلى الأسفل تحت شققهم يقع المكان الذي عقدت فيه حركة غادروا الهند في السابق اجتماعاتها الكبيرة من أجل الحرية، وقريباً من المكان هناك لابيرنم رود، والبيت الذي عاش فيه غاندي وتعلم الغزل وأبدع حركته العظيمة، حركة اللاعنف. واليوم، تحول إلى متحف، وتوجد فيه رسالة من الماهاتما إلى هتلر، يحضه فيها على إصلاح طرقه، ولكن ليس هناك أي إشارة إلى اقتباسي المفضل عن غاندي: "أولا يتجاهلونك، ثم يقاتلونك، ثم أنت الذي تنتصر".

في مخزن أكسفورد للكتب في تشيرتشغيت، حضرت إطلاق كتاب ألفه حفيد الماهاتما، راجموهان غاندي، وهو سيرة غفار خان، "غاندي المسلم" الملهم، ومعارض التقسيم. وقد قال لي: "الهند من وجوه عدة بلد عنيف، وحقيقة أن لدينا ديمقراطية اليوم حقيقة تعود إلى حد كبير إلى اللاعنف في حركة الحرية".

الديمقراطية ربما، ولكن الحرية تنتظر.

* * *